سيرة كاتب موحدي

أبو القاسم البلوي الإشبيلي

(الجزء الأوّل)

د.محمد مفتاح الخُمْسي. كلية الآداب. فاس.

ينتسب البلويّون سواء تعلق الأمر ببلويي المشرق أو الأندس أو المغرب إلى قبيلة "بلي" العربيّة اليمنيّة. وهم ولد بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، فهي إذن قبيلة جنوبية كانت تسكن في القديم منطقة مأرب، وذلك بدليل قول الشاعر اليمني الملثم بن قرط البلوي [1] :

أَلَمْ تَــرَ أَنَّ الــحَــيَّ كَــانُــوا بِغِـبِـطَـة ... بِـمـأرب إذ كَـانُـوا يَـحُـلُّـونَـهَا مَـعًـا

بَــلَــى وَبَــهْـرَاءُ وَخَـوْلاَنُ إِخْـــوَةٌ ... لِـعَـمِـرو بْنِ حَـافٍ فَرْعٌ قَدْ تَـفَـرَّعَـا

غير أنّ الهمذاني وهو المؤرّخ العالم بالتوزيع الجغرافي للقبائل اليمنيّة العارف بها حقّ المعرفة يجعل منازل بلى إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة [2].

كان البلويون كثيري الترحال والتنقل، يشاركون في الحروب التي يخوضها المسلمون في جميع البقاع، ومن هنا يمكن أن نعتبر البلويين الداخلين إلى الأندلس كانوا قد وفودوا عليها، أثناء الفتح الإسلامي ثم انتشروا بعد ذلك في مناطق متعددة وأماكن متفرّقة من بلاد الأندلس.

وقد حاولنا أن نتتبع البلويين المقيمين بالأندلس من خلال بعض كتب التراجم والطبقات فوجدنا أن توزيعهم الجغرافي كان على الشكل التالي :

---

(1) منتخبات في أخبار اليمن ص 9.

(2) وداد القاضي : بشر بن أبي كبار البلوي . ص : 25.

المكان	العدد	المصادر
قرطبة	4	التكملة130/1. التكملة292/1. الديباج المذهب179/2. الذيل69/4
ألمرية	3	الإحاطة 382/2. الإحاطة 218/3. أزهار الرياض 309/1.
طرطوشة	1	التكملة 2 / 495. الذيل والتكملة 6 / 16.
ما لقة	2	أدباء مالقة ص 122. وكذلك ص 208.
جيّان	1	الديباج المذهّب 354.
شاطبة	1	الذيل والتكملة 6 / 302.
إشبيلية	3	الذيل والتكملة 1/1 ص106. برنامج شيوخ الرعيني. 112.
غرناطة	1	تاج المفرق. ص 16.
لبسة	2	الإحاطة (نصوص جديدة) ص 173 و221.
جزيرة شقر	1	الذيل والتكملة 6 / 79.
إلبيرة	1	الإحاطة (نصوص جديدة) ص 226.
برجلة	1	الذيل والتكملة 1 / 1 ص 449.
وادي آش	2	ثبت البلوي. ص 17 و20.

من خلال الجدول السابق يتبيّن أنّ استقرار البلويين لم يكن بمكان واحد، بل كانت تحرّكاتهم تتم من مدينة إلى أخرى ومن منطقة إلى منطقة، ومن ثم وجدنا بعض البلويين القرطبيين يرحلون إلى شذونة أو إشبيلية، وبعضهم الآخركان من باجة ثم تركها ودخل قرطبة. كما وجد أيضا أن بعضهم من طرطوشة وقد رحل إلى مرسية وأن الذين سكنوا مالقة كان أصلهم من إشبيلية. ويستفاد من الجدول السابق أيضا أن الرقعة الجغرافية التي كان البلويون يتحركون فيها هي وسط شبه الجزيرة وشرقها وغربها وجنوبها. أما الشمال فإننا لم نعثر على أيّ ترجمة لأيّ بلوي من شمال شبه الجزيرة، وذلك في المصادر التي اتخذناها مقياسا لتحرّكاتهم وتنقلاتهم.

وقد كان جل البلويين القاطنين بالأندلس ينتمون إلى بيوتات عريقة في المجد السيادة والشرف، ممّا مكّنهم من تولّي مناصب مهمة في الدول التي كانوا يعاصرونها وخلال فترات زمنية متعددة ومتنوّعة، غير أن المناصب التي كانوا يتقلّدونها غالبا بناء على الجدول السابق هي منصب القضاء، مما يدل على أن الرصيد الثقافي الذي كان لدى أغلبهم هو الشريعة الإسلامية، والفقه، والأحكام، والعلوم الدينية. ولعل اهتمام أغلب البلويين بالفقه المالكي وتبحرهم فيه هو الذي ساعدهم على تولّي مثل تلك المناصب، خاصة إذا علمنا أن الأندلس ظلت فترة وجيزة على مذهب الإمام الأوزاعي ثم تحولت إلى مذهب الإمام مالك الذي مكث خلال حقبة طويلة هو المذهب الرسمي للدولة في الأندلس.

غير أنّ البلويين لم يكونوا فقهاء فحسب، بل كان من بينهم الطبيب والمقرئ والأديب والشّاعر والعروضي. ويبدو أنّ الصفة الثانية التي كانت تغلب على البلويين بعد الفقه هي الأدب والشعر، فقد وجدنا في تراجم بعضهم أنه كان يتعاطى لقرض الشعر ويميل فيه إلى التوليد [1] بمعنى أنه كان من أنصار مدرسة التجديد، كما أن البعض الآخر، على العكس من ذلك يميل إلى الشعر المطبوع [2] غير المتكلّف، ولكنه كان يميل في شعره إلى الوسط فلا هو بالجيد ولا هو بالضعيف. وإذا انتقلنا من الجانب الأسري والثقافي إلى الجانب الأخلاقي والاجتماعي، فإننا نجد أن البلويين في عمومهم كانوا يتمتعون بخصال حميدة كالزهد والورع والفضل والبر وحسن السيرة [3]. مما دفع بالكثير من مؤلّفي الطبقات وكتب التراجم إلى الثناء عليهم وإبراز هذا الجانب من شخصيتهم.

---

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة. ج 2 / 382.

(2) نفسه . 3 / 218.

(3) أدباء مالقة. (مخطوط) لابن عسكر. ص 122.

*** مصادر ترجمة البلوي :**

لم يكن البلوي مشهورا في عصره شهرة بالغة كما أنه لم يكن مغمورا [1] بل عرف من قبل المعاصرين وشهدوا له بالتبريز والفطنة والذكاء، وسرعة البديهة والقدرة الفائقة على نظم الشعر وتدبيج الرسائل. غير أن ترجمته وتفاصيل حياته ظلت محصورة لدى فئة قليلة من معاصريه بحيث لم نجد له ذكرا في كتب الطبقات والتراجم المتأخرة. ولعل مرد ذلك أن كتابه في «فنّ الترسّل» لم يذع بين الناس ولم يستفد منه أحد من الذين اهتموا بتراجم الرجال وإنتاجهم فظل محدود التأثير قليل الانتشار. ولعل السبب نفسه هو الذي جعل كثيرا من المعاصرين من مستشرقين وعرب لا يولون الرجل أهميّة بل إنّ كثيرا منهم لم يذكروه ضمن مثقّفي العصر الموحدي الذين كان لهم تأثير جلي واضح في النهضة الأدبية والفكرية. وهكذا أهمله ليفي بروفنصال وهويثي ميرندة، وإحسان عباس، وحكمت علي الأوسي، ومحمد عبد الله عنان وغيرهم من كبار الباحثين الذين لهم إسهام وافر ودرسات قيمة عن عصر الموحدين وفي جوانب متعدّدة من الحقول المعرفية التي كان يزخر بها هذا العصر.

ولكننا بالرغم من هذا الإهمال الذي لقيه البلوي خلال حياته وبعد مماته، سنحاول أن نذكر بإيجاز المصادر التي ترجمت له سواء تعلّق الأمر بالأصول القديمة أو الدراسات الحديثة والمعاصرة معتمدين في ذلك على الترتيب الكرنولوجي (أي الزمني)

*** المصادر القديمة :**

ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة [2].

لعل الترجمة الوحيدة التي عرّفت بالبلوي وألقت الأضواء الكاشفة على بعض مراحل حياته وتكوينه الثقافي هي تلك التي احتفظ لنا بها صاحب الذيل والتكملة [3].

(1) إدريس العلوي البلغيتي : فن الترسل في عصر الموحدين ص 318 وما بعدها.

(2) حول ابن عبد الملك. انظر : مقدمة محمد بن شريفة جزء 8 من الذيل والتكملة.

(3) الذيل والتكملة 1 / 2 ص 453.

والسبب في ذلك عائد إلى كون ابن عبد الملك يعتبر من تلامذة البلوي الأوفياء ومن المقربين لديه والعاطفين عليه، بل يمكن اعتباره من أصدقائه على الرغم من فارق السن بينهما. لقد أفرد ابن عبد الملك ترجمة مطولة لشيخه ذكر فيها نسبه وشيوخه الذين درس عليهم في الأندلس، وكذلك شيوخه الذين أجازوه من المشارقة والأندلس كما ذكر بعض تلامذته الذين أخذوا عنه بالأندلس والمغرب. وقد عبر ابن عبد الملك في هذه الترجمة عن انطباعه الشخصي حول نفسية البلوي التي قال عنها : إنها كانت تتميز بالرقة والرهافة وسرعة الدمعة، كما ذكر مهنته التي كان يمتهنها بمراكش وهي «عقد الشروط». وقد تحدث المؤلف أيضا عن ارتباط البلوي ببعض ولاة الموحّدين بالأندلس، وتقلده لمنصب الكتابة لكثير منهم، كما ذكر مؤلفاته وإنتاجاته الفكرية سواء تلك التي أتمّها في حياته أو التي توفي قبل إتمامها، كما تحدث عن شعره وسرعة بديهته فيه مستشهدا بقصيدته التي أنشدها بين يدي «المعتضد بالله الملقب بالسعيد» [1] الذي تولى الحكم بعد وفاة أخيه الرشيد. وهي من القصائد الغّر المتميزة بالجودة والإتقان. وفي ختام الترجمة أبرز ابن عبد الملك الحرمان الذي أصاب شيخه في أواخر حياته وكيف تنكّر له بعض تلامذته ومنهم أبو الحسن الرعيني [2] بالرغم من أنه كان بلديّه، وقد انتفع به كثيرا في طريقته التي اشتهر بها وهي الكتابة عن السلطان.

ابن سعيد المغربي : اختصار القدح المعلى : [3]

لم يترجم ابن سعيد لصديقه البلوي في كتاب المغرب في حُلَى المَغرب، كما أنه لم يذكره في «الغصون اليانعة» ولا في «رايات المبرزين» غير أنّه أفرد له ترجمة في اختصار القدح [4]. ويمكن اعتبار هذه الترجمة بعد ترجمة ابن عبد الملك أوفى ترجمة وصلتنا عن الرجل وعن ظروف حياته. ويذكر ابن سعيد في غضون هذه الترجمة

(1) البيان المغرب. 359. ط. ميرندا.

(2) برنامج شيوخ الرعيني : المقدّمة.

(3) محسن حامد العياري : ابن سعيد حياته وتراثه الفكري والأدبي.

(4) اختصار القدح المعلّي : ص 120.

نسب البلوي مختصرا كما يتحدّث عن شهرته في صناعة الكتابة وعن منصبه الذي تولاه في إشبيلية لبعض سادة بني عبد المؤمن، كما أن المؤلف تحدث عن الشؤم الذي أصاب البلوي في أواخر حياته، مشيرا إلى بعض مؤلفاته وخاصة كتابه الذي صنفه في رسائل كتّاب عصره [1]. ثم تحدث ابن سعيد عن شاعرية البلوي الفذة مشيرا إلى قصيدته التي أنشأها بحضرة أبي العلاء إدريس [2]، حينما وصله الخبر بقتل البياسي[3] الذي كان قد أضرم في الأندلس نار الفتنة، كما أورد ابن سعيد ضمن ترجمة البلوي جملة من أشعاره الذاتية، وأشاد بطول نفسه وقدرته على الإبداع وممارسة الشعر، كما اختار له فصولا من رسائله في الشكوى والتي عبر البلوي من خلالها عن حالته النفسية والاجتماعية [4].

* **المصادر الحديثة :**

الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام

لقد خصص ابن إبراهيم كتابه للأعلام الوافدين على مراكش من غير المغاربة، كما أنه ترجم فيه لمجموعة من الشخصيات المراكشية، وبما أن البلوي كان على شرط كتابه فقد أفرد له ترجمة مطولة نقلها بالحرف دون زيادة أو نقصان عن كتاب «الذيل والتكملة»، غير أنه أفصح عن مصدره الذي أخذ عنه في مقدمة الترجمة. وكنا نعتقد أنه سيضيف جديدا في ترجمته للبلوي غير أنه لم يضف أيّ جديد، كما كنا نرجح أننا سنجد ترميما للخروم التي وقعت في ترجمة البلوي في «الذيل والتكملة» المطبوع ولكن شيئا من ذلك لم يحدث مما يدلّ على أن المؤلف اعتمد على نفس نسخة الذيل (قسم الأحمدين) الذي حققه الدكتور محمد ابن شريفة.

---

(1) لقد وهم ابن سعيد في ذلك، حيث ذكر أن الكتاب يحتوي على رسائل الكتاب المعاصرين للبلوي والحقيقة أنه يضم رسائل لغيرهم.

(2) الحلل الموشية. ص 163.

(3) البيان المغرب. قسم الموحدين. ط. ميرندا ص 252.

(4) الذيل والتكملة 8 / 1 ص 10 - 11.

* **الدراسات المعاصرة :**

لقد أشرت في بداية الحديث عن مصادر ترجمة البلوي إلى أن الباحثين المعاصرين الذين كتبوا دراسات قيمة عن الموحّدين في جوانب متعددة من الحقول المعرفية لم يهتموا بالبلوي اهتمامهم بغيره من الشخصيات الموحدية. غير أننا وجدنا بعض هؤلاء وفي أيامنا القريبة أفردوا البلوي بعنايتهم وأجروا ذكرا في بعض مؤلفاتهم ومن هؤلاء:

الدكتور محمد بن شريفة :

أثناء الترجمة القيمة التي كتبها الدكتور محمد بن شريفة عن ابن عبد الملك المراكشي في مقدمة الجزء الثامن من الذيل، تعرض للبلوي باعتباره من شيوخ ابن عبد الملك الأوائل الذين درس عليهم بمستقره وأخذ عنهم مباشرة في بلده مراكش.

وقد اعتمد المؤلف في بناء هذه الترجمة على كتاب الذيل والتكملة نفسه، فتحدث عن صلة ابن عبد الملك بشيخه وعن المعارف التي أخذها عنه مشيرا إلى مؤلفاته وعن رواية التلميذ لشعر أستاذه، وعما ابتلي به البلوي في آخر حياته من فاقة وحرمان، كما تحدث عن مؤلفه "العطاء الجزيل" مشيرا إلى وجود قسم منه بالخزانة الحسنيّة [1] ومنوّها بقدرة البلوي على فن الترسّل ومشيرا إلى تأثر ابن عبد الملك بطريقته في الكتابة باعتباره كان من الملازمين له والمختصين بمصاحبته [2].

الدكتور إحسان عباس :

في مؤلف الدكتور إحسان عباس "عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقّى من رسائله» [3] إشارة مقتضبة للبلوي، ولعل القارئ يتساءل ما علاقة البلوي بعبد الحميد؟ ولكن سؤاله وتعجبّه سينجليان حينما يعلم أن الكتاب الذي ألفه إحسان عباس يرجع في أصوله -كما يقول هو نفسه - إلى البلوي [4]، ذلك أن أبا القاسم البلوي احتفظ في

---

(1) الذيل والتكملة 8 / 1. ص 12.

(2) نفسه.

(3) عبد الحميد بن يحيى الكاتب. ص 8.

(4) نفسه.

كتابه « العطاء الجزيل" بمجموعة من رسائل عبد الحميد النادرة التي لا توجد في مصدر آخر من المصادر الأندلسيّة أو المشرقية. وقد جمع إحسان عباس هذه الرسائل، وأضاف إليها رسائل أخرى لم ترد فيه، وقدم لها بدراسة قيمة عن عبد الحميد الكاتب مشيرا في مقدّمته إلى المصدر الذي استخرج منه هذه الرسائل الجديدة معرّفا -بإيجاز- بالكتاب وصاحبه [1].

وقد اعتمد إحسان عباس في صفحاته القليلة التي كتبها عن البلوي على الترجمتين الواردتين في كل من الذيل واختصار القدح.

عبد الوهاب بن منصور :

جمع الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتابا عرف فيه بأعلام المغرب العربي، وقد خص البلوي في القسم الرابع بترجمة وافية [2] ومزج المؤلف في هذه الترجمة بين ما ورد في الذيل وما ورد في اختصار القدح. وقد نقل من المصدرين المذكورين جملة من أخبار الرجل وأشعاره وقدرا صالحا من نثره.

إدريس العلوي البلغيتي :

في رسالة جامعية كتبها إدريس العلوي عن فن الرسائل في العصر الموحدي [3] أفرد الباحث للبلوي ترجمة تعتبر -في نظري- أوفى ما كتبه المعاصرون عن شخصيته وتراثه الفكري والأدبي. وقد استفاد الباحث في بناء ترجمة الرجل من المصدرين الأساسيين "الذيل والتكملة" و"اختصار القدح المعلّى" كما استفاد في جزء يسير منها من كتاب "العطاء الجزيل" وقد تعرّض الباحث في هذه الترجمة لأسرة البلوي ونسبه وبعض شيوخه مع الحديث عن ثقافته والتنويه بملكته الفذّة وبموهبته الفنيّة الرفيعة كما أنه انتقى من المصدرين المذكورين طائفة صالحة من شعره وفصولا

(1) عبد الحميد الكاتب. ص 10 - 15.
(2) أعلام المغرب العربي. ج 4 / 146.
(3) فن الترسل في عصر الموحدين. 168.

من رسائله القصيرة [1]، محللا بعضها تحليلا جزئيا تعرض فيه لبعض المعاني التي تنطوي عليها تلك الرسائل مبرزا قيمتها الفنية والتاريخية، ومنوها بأسلوب البلوي وقدرته على الكتابة [2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن البلوي قد ذكر عرضا في بعض المصادر والمراجع، فهو مذكور في نفح الطيب حيث اختار له المقّري أربعة أبيات في شكوى الزمان وأهله. كماورد ذكره في «ملء العيبة» أثناء حديث ابن رشيد عن سند لأحد الشيوخ. كما أشار إليه أستاذنا وشيخنا الكبير محمد المنوني في المصادر العربية لتاريخ المغرب معرفا بنسخة الكتاب ومنوّها بقيمته الأدبية والتاريخية. كما وردت الإشارة إليه في رسالة الدكتور عبد الله العمراني أثناء حديثه عن البلويين بالأندلس. ولم يذكره من المستشرقين سوى أساتذتنا الجليلة ماريا خيسوس فيقيرا في بحثها القيم عن مصادر تاريخ الموحدين.

نستفيد من كل ما سبق أن الترجمتين الأصليتين اللتين احتفظ لنا بهما الزمان هما الواردتان : في : «الذيل والتكملة» «واختصار القدح المعلّى» وأن الدارسين المحدثين والباحثين المعاصرين قد اعتمدوا جزئيا أو كلّيا على هذين المصدرين ولم يلتفت أحد من هؤلاء إلى قيمة كتاب «العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل» في بناء ترجمة البلوي، فهو يحتوي على معلومات هامة تفيد الباحث في إبراز شخصية الرجل وأخلاقه، كما أنّ الكتاب يكشف عن علاقات البلوي بمعاصريه من الطبقة العليا كالولاة والقواد والأمراء والكتّاب أو من الطبقة الدنيا من عامة الشعب. كما أنه يحتوي على نماذج هامة من رسائله وأشعاره التي يستطيع الباحث من خلالها أن يقوّم قدرات البلوي الفنية من خلالها، ويضعه في منزلته التي كان يحتلّها بين كتّاب عصره.

---

(1) إدريس العلوي البلغيتي. فن الترسل في عصر الموحدين. ص 321.

(2) نفسه، ص 323.

*** المؤثرات العامة في حياته :**

1) في الأندلس :

البلوي : ذكر نسبه ابن عبد الملك فقال : هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن محمدبن عبد الله بن علي القضاعي الإشبيلي، كان سلفه القدامى يسكنون قرطبة، ثم نزحوا إلى إشبيلية ولاندري متى كان هذا النزوح. كما أننا لا نملك أخبارا عن أسبابه ودوافعه، غير أن مترجميه ذكروا أنهم كانو يعرفون في قرطبة ببني علي، نسبة إلى جدهم الأول [1].

وليست بين أيدينا أخبار عن أسرته الكبيرة أو الصغيرة، فقد سكتت المصادر عن ذكر والده كما أنه لم يشر إليه في كتابه، مما يدل على أنه لم يكن من مثقفي عصره ويؤيد ذلك أن توجيه البلوي نحو الفكر والثقافة لم يكن من قبل أبيه بل كان بمبادرة من أخيه الأكبر [2]. وقد كان أخوه هذا من كبار عاقدي الشروط بإشبيلية ومن صدور العدول المبرزين بها، ومن أثبت الناس على شهادة وإن طال أمرها [3]، كامل المعرفة بالفقه والفرائض والمواريث والحساب والعروض [4]. أخذ البلوي كل هذه العلوم عن أخيه فأصبح مبرزا فيها مثله، كما أخذ بعض المعارف والعلوم عن خاله أبي العباس أحمد بن عمر القرمادي [5] مما يدل على أن والدة المؤلف كانت من أسرة آل القرمادي وهي من الأسر المشهورة في إشبيلية.

وكما أننا لا نملك معلومات كافية عن أسرته الكبيرة، فإننا أيضا لا نتوفر على أخبار ومعلومات ضافية عن أسرته الصغيرة وليس هناك سوى إشارات طفيفة وغامضة أحيانا عن أحوال أسرته، فقد ذكر هو نفسه في سياق رسالة له أن ربة الدار

(1) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام. ج 2 / ص 180.

(2) الذيل والتكملة 5 / 1 ص 309.

(3) نفسه.

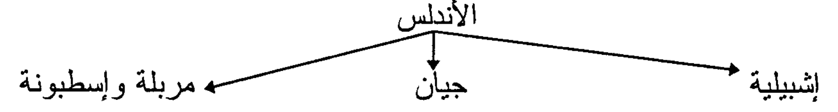
(4) نفسه.

(5) الذيل والتكملة 1 / 1 ص 348.

قد جارت عليه في أقوالها وافعالها [1] وأنه حزن لهذا الجور حتى غدا لا يهنأ له عيش ولا يطمئن له بال، فساء حاله ظاهرا وباطنا ولا ندري ما يقصده البلوي من هذا الجور غير أننا نستنتج منه أنه لم يكن هنّي البال مع أسرته خاصة إذا علمنا أنه يشكو في رسالة أخرى من مقاطعة الأهل له، وأنه كان يكاتبهم من بلاد الغربة (أي من صحراء المغرب) فلا يردون عليه جوابا [2].

وإذا تجاوزنا حياة البلوي الأسرية فإننا نجده قد عاش حياة اجتماعية مليئة بالأحداث والتقلبات وأنه قضى مراحل حياته كلها مترددا بين الأندلس والمغرب، وذلك تبعا لارتباطه السياسي وتوجهه الإديولوجي.

أما بالأندلس فإننا وجدنا صدى أخباره في المدن التالية :



لقد كانت مدينة إشبيلية المقر الأساسي لصاحبنا ففيها قضى طفولته وشبابه، ويبدو أنه كان في مراحل حياته الأولى نشيطا مرحا، حيث كوّن صداقات متعددة مع أبناء بلده وغيرهم، فكان يخرج معهم لمنتزهات على الوادي الكبير فيتناشدون الشعر ويتسامرون بألوان من النثر [3]. وفي المدينة نفسها اتصال بمجموعة من الوافدين عليها وكان من بين هؤلاء شيخه وصديقه ابن عياش [4] كاتب الخلافة الموحدية في أيام المنصور والناصر والمستنصر الذي كان يشار إليه بالبنان لبراعته وفصاحته. ويبدو أنّ البلوي كان قد تدرب على يد ابن عياش في صنعة الكتابة وفن الترسل، كما أنه ارتبط بواسطته بالبلاط الموحدي وخاصة الولاة الذين ترددوا على إشبيلية حيث

(1) اختصار القدح ص 120.

(2) العطاء الجزيل.

(3) العطاء الجزيل.

(4) الذيل والتكملة. ج6 / 384.

تولى مهمة الكتابة في زمن شبيبته لمجموعة من هؤلاء كأبي زيد بن عبد المؤمن وأبي موسى المعروف بالعادل، وأبي عمران بن أبي موسى وأبي إسحاق بن أبي يعقوب وأبي إسحاق بن أبي يوسف المعروف بالأحول [1]. وبالرغم من أنه كتب لهؤلاء جميعا فإن الأخبار التي لدينا تدل على أنه ارتبط بهذا الأخير ارتباطا وثيقا حيث مكث كاتبا له مدة ثمانية عشر شهرا أي منذ دخوله لإشبيلية أواخر سنة 610 إلى حين وفاته سنة 612. وقد تأثر البلوي لوفاة صديقه أبي إسحاق بالغ التأثر، فرثاه بقصائد فريدة وكتب في تعزيته رسائل نادرة [2].

ويبدو أن إشبيلية عرفت تنصيب عدد من الولاة الموحدين الذين كانوا لا يعرفون الاستقرار الدائم بهذه المدينة، ولا شك أن هؤلاء الولاة كانوا يوصون بالبلوي خيرا ومن ثم أصبح من المقربين لديهم، ولو لم يكن قد تقلد لديهم منصب الكتابة، وهكذا وجدناه بين المدعوين لحضور حفل التهنئة الذي أقامه أبو العلاء إدريس بالقرب من الوادي الكبير بعد وصول البشارة بقتل البياسي [3]. وقد كان البلوي من بين الشعراء الذين أنشدوا قصائدهم في هذا الحفل وقد نالت قصيدته إحسان الوالي كما استحسنها العامة والخاصة وأصبح الإشبيليون يلهجون بها ويحفظونها عن ظهر قلب.

ويظهر لي أن أحد هؤلاء الولاة بعد أن خبر سيرة البلوي وعرف أخلاقه وحسن معاملته وثباته على الحق والعدل عيّنه قاضيا بمدينتي مربلة واسطبونة، يستفاد ذلك من رسالة بعثها له أبو الحكم بن عذرة جوابا على رسالة تعزية كان قد خاطبه بها وهو مقيم بهاتين المدينتين [4]. ولا شك أنّ البلوي كان قد سلك في خطّته هذه مسلكا حسنا مما دفع الناس إلى تقريظه والثناء عليه، معبرين عن شكرهم لسلوكه وذكائه وفضله

---

(1) أعلام المغرب العربي 4 / 146.

(2) العطاء الجزيل.

(3) البيان المغرب : 272 - 273.

(4) العطاء الجزيل .

وامتلاكه لزمام المعاني. وقد كان من بين المادحين له أبو الحكم بن عذرة الذي قال في حقّه :

وآسْلَمْ وَدُمْ يَا أَيُّهَا اَلقَاضِي اَلرَّضِي   فِي خُطَّةٍ تَقْضِي لَكُمْ بِبَقَائِهَا
مَا لاَحَ نَجْمٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ   أَوْ حَنَّ ذُو جفنٍ إلى إغْفَائِهَا [1]

غير أنّ البلوي لم يرض بهذا المنصب الذي أسند له ولم يرد أن يمكث فيه لسبب من الأسباب التي نجهلها وطلب إعفاءه ثم عاد إلى مدينة إشبيلية.

بعد عودة البلوي إلى إشبيلية استدعاه أبو زيد عبد الرحمان الموحدي ليكون كاتبه الخاص، فلبّى طلبه وانتقل إلى مدينة جيان حيث ظل هناك من سنة 607 إلى سنة 610. وفي هذه الأثناء صدرت عن البلوي رسائل رسمية وصلتنا منها رسالة واحدة كتبها عن والي جيان أبي زيد المذكور إلى ملك قشتالة وطليطلة وغشكونية يذكّره فبها بالعهود المبرمة بينه وبين الموحدين [2]. ويبدو أن إقامة البلوي بجيان لم تدم طويلا بسبب الصراع الذي كان قائما بين المسيحيين والمسلمين المجاورين لهم، وبسبب المناوشات الدائمة التي كانت تدور بين الطرفين، ففضّل الانتقال مرة أخرى إلى مدينة إشبيلية ومنها إلى مراكش.

2) **البلوي في المغرب :**

لم يكن البلوي دائم الاستقرار بالأندلس، بل كان يتنقل بينها وبين المغرب محاولا أن يتقلّد منصب الكتابة لدى أحد الخلفاء الموحدين الذين كانوا يقربون الكتّاب الأندلسيين لبلاطاتهم ويعتنون بهم أشد الاعتناء، غير أنّ البلوي لم يفلح في ذلك إذ لم نعثر في كتب الطبقات التي ترجمت له على خبر يشيد أنه تقلّد منصب الكتابة لخليفة من الخلفاء بالرغم من أنه عاصر مجموعة كبيرة منهم، وشاهد أحداث الدولة الموحدية وتقلباتها السياسية منذ نعومة أظفاره إلى حين وفاته.

(1) نفسه.
(2) نفسه.

وعلى الرغم من أن البلوي لم يجد في المغرب ما يلبي طموحاته ورغباته فقد تردد عليه مرات متعددة وخلال فترات مختلفة. ويبدو أن أول زيارة له للمغرب كانت في أيام الناصر أبي عبد الله بن المنصور [1]. حيث دخل مراكش واتصل فيها بشيخه أبي عبد الله بن عياش الذي كان قد تعرّف عليه من قبل في مدينة إشبيلية [2]. وخلال هذه المدّة التي أقامها في كنف أستاذه وصديقه المذكور عرض له مرض شديد كاد يؤدي بحياته لولا احتفاء ابن عياش به وإحضاره لمهارة الأطباء للنظر في علاجه وتدبير علّته [3]. ويبدو أن البلوي خلال إقامته الأولى بمراكش كان يتصل بالوافدين الأندلسيين على هذه المدينة خاصة أولئك الذين كانوا يردون من إشبيلية، يجالسهم ويسألهم عن حالهم ويشفع لهم في أمورهم ويتوسّط لهم في سبيل قضاء مآربهم.

بعد رحلة البلوي الأولى إلى مراكش عاد إلى إشبيلية موطنه الأصلي ولاندري متى كانت عودته، غير أن ابن عبد الملك يشير إلى ذلك قائلا : «وقدم مراكش في أيام الناصر وانقطع إلى ابن عياش واختص به فكان في كنفه إلى أن فصل عن مراكش إلى الأندلس» [4].

ويعود البلوي مرة أخرى إلى مراكش ضمن وفد إشبيلية الذي قدم لمبايعة الخليفة المعتضد بالله الملقب بالسعيد [5] وقد تمت بيعته سنة 650 هـ ممّا يفيد أن البلوي كان قد دخل مراكش في هذه السنة. ولعل ورود البلوي ضمن هذا الوفد له دلالة خاصة حيث نستفيد منه أن الرجل كان صاحب مركز اجتماعي هام، وأنه كان من وجهاء، قومه وخاصتهم حيث لا يقع الاختيار في مثل هذه المناسبات إلا على من توفرت فيه مثل تلك الصفات ؛ ويدلنا أيضا على أن البلوي كان من بين الشعراء الذين وقع عليهم

(1) الإعلام : ج 2 / 180.
(2) الذيل والتكملة : 6 / 385.
(3) نفسه. 6 / 385.
(4) الذيل والتكملة. 6 / 358.
(5) الذيل والتكملة : 1 / 2. ص 457.

الاختيار لإنشاد الشعر بين يدي الخليفة، وكان لا ينشد الشعر في هذه المناسبات إلا من شهد له ببراعة النظم وجودة القريحة، وقد كان البلوي يمتاز بالصفتين معا. ويذكر تلميذه ابن عبد الملك أنه أنشد الخليفة أثناء حفل تنصيبه قصيدة بديعة نالت إعجاب الحاضرين، ثم أتبعها بخطبة رائعة أظهر فيها البلوي قدرته على الارتجال وتفوقه في مجالي النثر والشعر.

ويستفاد من أخباره أنه مكث بمدينة مراكش خلال هذه المرحلة غير أن الأيام لم تساعده على بلوغ أمله إذ أدركته فاقة شديدة «اضطر من أجلها إلى الانتقال إلى حاحة من أعمال مراكش وبَواديها القريبة لتعليم العربية لبعض بني أحد رؤساء البربر» [1]. وبعد سبعة أشهر من القلق والغربة عاد البلوي إلى مراكش، وبيده نزر يسير من المال الذي كان قد أسداه إليه ذلك الرئيس البربري، أقام به أَوَدَهُ على تقتير مدة قصيرة، ثم عاد إلى حالة الفقر الأولى وظل يرتزق مما يعود عليه من عقد الشروط.

ولما ورد على مراكش سنة 655 الواعظ محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي تعرف على البلوي وتحقق من فضله وعلمه وأدرك ما آل إليه آمره من سوء حال، فصيره في كفالته وأجرى له جراية أقام بها أوده «وكان ذلك من أقبح ما جرت به الأقدار من موجبات النقد على صنفه وجيرانه من المنتمين إلى العلوم والمرتسمين به وغيرهم من رؤساء حضرة مراكش» [2]، فقد كان البلوي الجار القريب لأبي الحسن الرعيني وكان تلميذه وبلديّه وبطريقته في الكتابة انتفع حتى غدا الكاتب الرسمي لجملة من الخلفاء الموحدين ومع ذلك لم تجر له على يده منفعة ولا نال من قبله فائدة [3].

---

(1) الإعلام ج 2 ص 182. أعلام المغرب ج 4 / 147.

(2) الإعلام ج 2 / 182.

(3) الذيل والتكملة 1 / 2. 59.

وهكذا ظل البلوي يعيش في أخريات أيامه قلقا يعاني من شظف العيش وسوء الحال وعقوق الخلان والأصحاب إلى أن وفاه الأجل المحتوم مغرّبا عن وطنه الأصلي سنة 657 هـ.

*** شيوخه وتلامذته :**

لم يترك لنا البلوي فهرسة للشيوخ الذين درس عليهم أو أجازوه إجازة عامة أو خاصة، كما أنّ أخبار طفولته ومرحلة صباه قليلة شحيحة حيث لم تذكر المصادر التي ترجمت له شيئا عن تلك المرحلة، غير أننا باستقراء كتب الطبقات والتراجم تمكنا من ضبط بعض الشيوخ الذين تلقى عنهم العلوم أو أجازوه سواء من المشارقة أو الأندلسيين. ويبدو أن البلوي كان قد وجد في أحد أفراد عائلته من يوجهه نحو الدرس والتحصيل، ونعني بذلك أخاه الأكبر أبا الحسن علي [1] ؛ الذي أخبرنا البلوي أنه أدخل عليه أبا القاسم ابن بشكوال وهو بعد في المهد ابن أربعين يوما واستجازه له فكتب له إجازة وضعها بيده على صدره ودعا له بخير [2].

ويدلنا هذا الخبر على أن أول شيخ أجاز البلوي إجازة مجردة هو أبو القاسم ابن بشكوال صاحب كتاب "الصلة". كما يدلنا أيضا على أن البلوي يعدّ آخر من روى عنه بهذا النوع من الإجازة [3].

وحينما كبر البلوي وجد التوفيق مفتّح الأبواب في شتى العلوم من عروض وحساب وفرائض وهندسة وحديث وأدب وقراءة ومهارة في عقد الشروط وقدرة على نظم الشعر وكتابة الرسائل. ولم يكن التوفيق ليحالفه لولا نبوغه وذكاؤه ولولا جلوسه إلى شيوخ كبار وحضوره لحلقات الدرس التي كانت تعقد بإشبيلية من قبل هؤلاء الشيوخ الذين كانت تزخر المدينة بهم في هذا العصر.

---

(1) الذيل والتكملة 5 / 1. ص 310. صلة الصلة ص 130. التكملة : ترجمة رقم 1896. برنامج شيوخ الرعيني ص 112.

(2) الذيل والتكملة 1 / 2. ص 454.

(3) سير أعلام النبلاء ج 21. ص 141.

ويبدو أن البلوي كان حريصا على العلم لا يأنف أن يستفيده من الصغير والكبير، يقيّد منه ما شاء أن يقيد ويحفظ منه ما شاء أن يحفظ. ولذلك تنوعت ثقافته وتعددت معارفه بتنوع الشيوخ الذين درس عليهم وبتعددهم. ومن هؤلاء الشيوخ :

1- أبو العباس أحمد بن مضاء القرطبي الذي كان بارعا في فن التصريف من العربية عالما بالنحو كاتبا بليغا شاعرا مجيدا متحققا من العلوم العقلية والنقلية، كما كان طيب النفس كريم الأخلاق حسن اللقاء جميل العشرة كامل المروءة. أخذ عنه جملة من الطلبة بالأندلس والمغرب ودرس عليه أبناء عبد المؤمن بن علي مدة وانتفعوا بعلمه وفضله. درس البلوي على شيخه هذا تصانيفه، ومن بينها كتابه "المشرق" (1) الذي أجاز له روايته كما أجاز له رواية بعض أشعاره.

2- أبو العباس أحمد بن عمر بن أحمد بن عبد الملك اللخمي القرمادي (2) وهو خال البلوي، ذكر ابن عبد الملك أن له رحلة إلى المشرق حج فيها وسمع بالإسكندرية عن السلفي.

3- أبو عبد الله بن عياش (3) وهو من كتّاب الدولة الموحدية المرموقين، روى عن الإمام السهيلي وابن حبيش، وكان يتصرّف في الكتابة تصرفا بارعا ويحفظ جملة وافرة من الأشعار، وقد اتصل به البلوي بمدينة إشبيلية ثم بمدينة مراكش وكانت بينهما علاقة متينة وطيدة وقد انتفع البلوي بطريقته في الكتابة.

4- أحمد بن محمد بن مقدام الرعيني(4) الإشبيلي كان شيخا مقرئا عارفا بتجويد القرآن حافظا لأحديث راوية لها، متصفا بالعدل والنزاهة فيما ينقله أو يرويه، حافظا للآداب يستظهر شعر (سقط الزند) لأبي العلاء المعري، متصفا بالزهد والفضل. وكان البلوي يجلّه ويقدّره، وقد روى عنه وحدث تلامذته بأخباره.

---

(1) (المشرق) هو الكتب الذي طبعه شوقي ضيف باسم الرد على النّحاة

(2) الذيل والتكملة 1 / 1. ص 348.

(3) التكملة : ج 2 : ص 605. الذيل والتكملة 6 / 384.

(4) الذيل والتكملة 1 / 1 / 384. التكملة 1 / 97. جذوة الاقتباس 1 / 72.

5- محمد بن سعيد بن زرقون الإشبيلي [1] : كان محدثا ثقة فيما يرويه عالما بأصول الفقه وأحكام القضاء ماهرا في عقد الشروط والوثائق، دارسا للآداب كاتبا مجيدا شاعرا محسنا، حسن المشاركة في الطب قضى عمره في تدريس الحديث وإسماعه، كما أنفق وقتا طويلا في تعليم الأدب. وكان يجمع بين الثقافة المتنوّعة وبين دماثة الخلق، وحسن التودد إلى الناس، وخاصة طلبته الذين كانوا يتلقون عنه العلم.

6- يوسف بن أحمد بن عياد التميمي [2] اشتهر بمشاركته في أصول الفقه وتدريسه لكتاب "التنقيحات" للسّهروَرْدِي ؛ وكان شغوفا بالأدب كاتبا مجيدا، له حظ من قرض الشعر وبصر بالفلسفة، كما كان يتمذهب بالمذهب الشيعي ويجاهر بالمغالاة فيه. دخل إشبيلية ثم انفصل عنها إلى مراكش صحبة أبي عمران بن أبي موسى بن عبد المؤمن.

7- عبد الله بن أحمد بن جمهور [3] القيسي الإشبيلي، كان سلفه من جند الشام النازلين بشرف إشبيلية. روى عن ابن حبيش، وابن فرقد، وابن ملكون، وابن العربي، وابن الجد ؛ كما أخذ عن أبي الحسين بن عظيمة. واشتهر بمعرفته باللغة وبعقد الشروط، كما كان له حظ من علم الأنساب والتاريخ ؛ وكان إلى جانب ذلك متميزا بصلاحه وفضله ودماثة خلقه درس عليه البلوي واشترك معه في الأخذ عن بعض الشيوخ.

8- أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري [4] روى عن أبي سليمان بن حوط الله. وكان من الفقهاء المتصفين بالحفظ، العاقدين للشروط المبرزين في معرفتها الضابطين لأحكامها.

---

(1) الذيل والتكملة. 6 / 203. التكملة 2 / 540. الديباج المذهب 2 / 259. تذكرة الحفاظ رقم 1360.

(2) الذيل والتكملة : 8 / 1. ص426.

(3) التكملة 2 / 872. الذيل والتكملة 4 / 174.

(4) الذيل والتكملة : 1 / 1. ص 527.

وقد ذكر ابن عبد الملك إلى جانب هؤلاء جملة من الشيوخ الذين أخذ عنهم البلوي كأبي الحسين بن عظيمة الذي قرأ عليه البلوي القرآن بالقراءات السبع، وأبي إسحاق ابن الشرّفي وأبي الحجاج بن الحسين بن عمر. كما ذكر جملة من الشيوخ الذين أجازوه ومن بينهم عبد الرحمان بن محمد الشرّاط من الأندلسيين، وأبو الطاهر الخشوعي من المشارقة[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن البلوي بعد أن اكتملت شخصيته واستوى عوده وتنوعت ثقافته شارك في مجال التدريس وندب نفسه لنشر العلوم والمعارف فتلقاها عنه مجموعة من التلاميذ النجباء سواء بإشبيلية حيث أقام مدة طويلة من مرحلة حياته الأولى أو بمراكش التي مكث بها في مرحلة حياته الأخيرة.

وقد ذكر ابن عبد الملك أن كثيرا من شيوخه وجماعة من أصحابه أو من يتنزل منزلتهم [2] قد قرأوا على البلوي كثيرا من الحديث والآداب. وذكر أيضا أنه قرأ عليه -هونفسه- القرآن الكريم برواية ورش وتدرب على يديه في علم العروض، وصناعة الحساب والفرائض، وأنه أجازه إجازة عامة أكثر من مرة، وعلى هذا الأساس يكون ابن عبد الملك من تلامذة البلوي الذين لازموه، وأنه كانت له خصوصية به. ولم تكن صلته بشيخه هذا مقتصرة على حلقة درسه وإنما كان يسايره ويذاكره خارج الحلقة، ويجالسه في دكانه الذي كان يتصدى فيه لعقد الشروط. كما كان ابن عبد الملك الراوية الأول لشعر البلوي يستفاد ذلك من قوله "أنشدني كثيرا من شعره ما لا أحصيه كثرة وشاهدت من ارتجاله إياه وسرعة بديهته ما اقتضي منه العجب" [3]. ويبدو أن صحبة ابن عبد الملك لشيخه كانت حوالي سنة 650 هـ بمدينة مراكش وأنها قد استمرت إلى حين وفاة البلوي سنة 657هـ [4].

(1) نفسه 1 / 2. ص 454.

(2) الذيل والتكملة 1 / 2. ص 454.

(3) نفسه.

(4) د. محمد بن شريفة (مقدمة الذيل والتكملة) ج 8 / 1. ص11 - 13.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن عبد الملك آلمراكشي يعد المصدر الأساسي في بناء ترجمة البلوي باعتباره شيخه الأثير الذي استفاد منه كثيرا من المعلومات وظفها في كتابه (الذيل والتكملة). ويستفاد مما هو مثبوث في هذا الكتاب من معلومات أنه روى كثيرا من الأخبار. كما يستفاد أيضا من خلال الأخبار التي أوردها ابن عبد الملك في كتابه عن شيخه أنه كان من تلامذته الأوفياء، ولذلك نجده رثى لحاله حينما أصابته فاقة في أخريات أيامه وأنه كان ينحى باللاّئمة على بعض تلامذته الآخرين الذين لم تجر الأقدار على يدهم خيرا بالرغم من انتفاعهم به. وهو يعني بذلك أبا الحسن الرعيني [1] الذي يعد من تلامذة البلوي الأوائل الذين انتفعوا كثيرا بطريقته في الكتابة فأصبح لهم صيت ذائع وشهرة بالغة واكتسبوا جاها عريضا وقد اتصل الرعيني بالبلوي في إشبيلية ودرس عليه، وتدرب بين يديه على أساليب الكتابة حتى صار من العلماء المرتسمين فيها ؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يجر له ذكرا في "برنامجه" مع أنه على شرطه. ولا ندري سبب ذلك وعلّته إلا أن يكون قد وقع بين التلميذ وشيخه ما يدعو إلى إسقاطه في كتابه.

(يتبع)

(1) مقدمة برنامج شيوخ الرعيني – الذيل والتكملة 5 / 1. ص 323.